رجاء [1]

لا أحب التشاؤم ،[2] ولا أحب الاستماع إلى المتشائمين ، بل أنا أكره أشد الكره هذه الأحاديث التى تلقى على الحياة المصرية فى هذه الأيام لونا قاتما حزينا ، أو تريد أن تتنبأ للحياة المصرية فى الأيام المقبلة القريبة أو البعيدة بلون قاتم حزين . وكثيرا ما أغلو فى ذلك حتى أتهم نفسى فى هذا التفاؤل واضطرها إلى موقف وسط بين الرضى والسخط ، وبين حسن الظن وسوء الظن . فلست أشك فى أن حياتنا المصرية لم تصل من السوء إلى مثل ما وصلت إليه فى هذه الأيام . ولست أشك فى أن الحياة السياسية الشاذة التى نحياها هى المؤثر الأول فى هذه الحال السيئة التى نشقى بها ، ولكنى أعتقد أن هذه الحياة السياسية السيئة طارىء مهما يطل ومهما يثقل فلا بد من أن يزول غدا أو بعد غد .

وأعتقد أن فى الأمة المصرية قدرة على المقاومة والصبر ، وعلى الثبات والاحتمال ، ستعصمها من الاندفاع فى هذا الفساد المنكر

---

(١) الأصل « رخاء » ونظن الصواب ما أثبتناه

(٢) ٢٢ - ٨ - ١٩٣٣

الذى لا يرجى له صلاح ، والذى يتحدث به المتشائمون . فأنا إذن أقاوم الغلو فى التفاؤل ، وأقاوم الإغراق فى التشاؤم ، وأرجو أن يكشف عن مصر هذا الضر الذى تلقاه ، وتزال عنها هذه الغمة التى تشقى بها ، ولكن علامات تظهر فى جو مصر الاجتماعى مهما تفعل فلن نستطيع ولا ينبغى لنا أن نهملها أو نقصر فى التفكير فيها والتنبيه إليها ، فقد يظهر أنها نذر تنبىء بشر مستطير .

زعموا أن رجلا أخذته الشرطة عند مسجد من المساجد ، وهو يحاول أن يعرض طفلة للبيع . فلما سئل تبين المحققون أنه إنما كان يعرض هذه الطفلة للبيع متفقا على ذلك مع أمها . فقد رأينا إذن فى القرن العشرين ، وفى مدينة القاهرة ، وعند مسجد من مساجد الله رجلا قد اتفق مع أمّ من الأمهات على أن يبيع ابنتها بثمن بخس دراهم معدودة أو دنانير معدودة . ولكنه بخس على كل حال إذا قدرت قيمة هذا الثمن مهما يكن بالقياس إلى عواطف الأمومة التى لم تمنع امّاً من أن تبيع ابنتها بالمال .

وزعموا أن الأمن قد وصل من الفساد والاضطراب ، وأن السلطان قد وصل من العجز والضعف إلى حيث أصبح الناس يقضون لأنفسهم بأنفسهم ويثأرون لأنفسهم بأيديهم ، ولا يكاد يختصم اثنان فى أمر من الأمور حتى يدخل بينهما المسدس أو البندقية أو السكين ، وبحيث أصبح الناس لا يأمنون أن يجلسوا فى دورهم قد أغلقت عليهم أبوابها فقد يطرق الباب فإذا فتح دخل منه الموت ، أو دخل منه اللص الذى يتخذ الإكراه وسيلة إلى ابتزاز المال ، وبحيث

أصبحت الطريق العامة مخوفة كطرق الصحراء فى أيام البغى والعدوان بين أهل البادية ، يمضى الرجل آمنا مطمئنا ، أو خائفا مروعا ، وإنه لفى طريقه وإذا رصاصة تصيبه من حيث لا يحتسب ، أو هراوة تقع على رأسه من حيث لم يكن قدر ، بل حدثنى بعض الأجانب أمس أنهم خرجوا يتنزهون فى طريق من طرق الضواحى قريب من القاهرة ، فلم يكادوا يخرجون من سياراتهم ويمضون أمامهم قليلا حتى أصابهم وابل من الحصى وصغار الأحجار ، ومن الشتم والسب ، وحتى أشفقوا من شر عظيم إن مضوا فى الطريق ، فعادوا إلى سياراتهم مسرعين ، ورجعوا إلى القاهرة حيث الأمن فيما يظهر أكثر اطمئنانا ، وأشد استقرارا .

وزعموا أن فى مصر مائتى ألف من الناس قد أصابهم السل وعرضهم لنتائجه المهلكة بالطبع ، وان ليس فى مصر إلا مستشفى واحد لعلاج من يلم بهم هذه المرض المهلك . وتحدثوا قبل ذلك وسيتحدثون بعد ذلك عن هذه الأوبئة الفاتكة التى تغشى المدن فتعصف بالفقراء والبائسين . ومهما تبحث عن العلل التى تثير هذا كله فتحمل أمّا على بيع ابنتها ، وتعرض الأمن لهذا الخطر المنكر ، وتدفع السل والأوبئة إلى الفتك بالألوف من المصريين فأنت مضطر إلى أن تجد علة إن لم تكن هى الوحيدة فى هذا كله فهى أعظم هذه العلل آثارا ، وهى الجوع والحرمان .

فأكبر الظن أن هذه الأم لا تبيع ابنتها كرها لها ، وإنما تبيعها لتعيش وأكبر الظن أن الجوع هو الذى يغرى الآثمين من قريب أو بعيد

باقتراف الآثام ، وأكبر الظن أن الحرمان هو الذى يمكن للسل والأوبئة ويسلطها على المصريين .

وقد تكون هناك علل أخرى تظاهر هذه العلة ، ولكن الفقر هو من غير شك أقوى هذه المؤثرات وأشدها نكرا . فإذا أضفت إلى هذا أن إلى جانب هذا البؤس الذى يفسد كل شيء حتى العواطف المقدسة ترفا لا يخلو من الوقاحة والاستهانة بكل حياء ، ولا يتأثر بهذه النار المحرقة التى يصطليها البائسون والمحرومون ، وإذا لاحظت أن هذا الترف لا ينعم به أغنياء الشعب ، فأغنياء الشعب يشقون بالأزمة وتنوء بهم أعباؤها الثقال . وإنما ينعم بهذا الترف فريق من كبار الموظفين الذين أتاحت لهم الظروف السياسية أن يسعدوا برضى الوزراء وعطفهم ونيل المكانة منهم ، وافقتنى على أن من المعقول أن تثور الحفيظة فى نفوس الناس وأن يعرف المصريون شيئا لم يعرفوه من قبل ، وهو سخط البائس على صاحب النعمة ، وبغض المحروم للمترف السعيد

والناس فى مصر يقرءون الصحف ، أو تقرأ لهم الصحف ، وليس يخفى عليهم من أمر الوزراء وكبار الموظفين شيء . فهل يسأل كثير من الناس أنفسهم عن بعض الأنباء التى تنشرها الصحف كيف تقع من نفوس البائسين والمحرومين فى المدن والقرى ، وفى أقصى الريف ، لا تسل عن موقع هذا النبأ الذى أذيع بأن مدير الأمن العام سيمنح علاوة قدرها ثلثمائة جنيه فى العام من نفوس الموظفين كبارا وصغارا ، ومن نفوس الذين يشتغلون بالسياسة اليومية من المعارضين . فهذا

الموقع معروف ، لا غرابة فيه ، ولكن سل عن موقع هذا النبأ من نفوس هؤلاء العمال والفلاحين الذين يلتمسون القوت لأنفسهم وأهلهم فلا يجدونه أو يلتمسون العلاج لأنفسهم وأهلهم من مرض طارىء أو وباء ملم فلا يظفرون به . ولا تسل عن موقع هذا النعيم الذى يستمتع به الوزراء المصطافون فى أوربا ، أو فى الإسكندرية ، وأمثال الوزراء الذين يصطافون هنا وهناك على حساب الدولة أو على حساب أنفسهم ، لا تسل عن موقع هذا من نفس هذه الأم التى أرادت أن تبيع ابنتها ، أو من نفس غيرها من الأمهات اللائى لا يردن بيع أبنائهن ولكنهن يلتمسن لهن أسباب الحياة فلا يظفرن منها بشىء .

ما أجدر المصريين أن يفكروا فى هذه العلاقات التى تظهر فى جو الحياة الاجتماعية المصرية فإنا نخشى فى غير غلو ولا إسراف أن تكون هذه العلاقات مؤذنة بشر عظيم . ولعل من الممكن أن نستدرك هذا الشر بعض الشىء إن فكرنا فيه منذ الآن ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه أنه قد يطغى إذا أهملناه ، وقد نجد أنفسنا فى يوم من الأيام أمام داء عضال ليس إلى علاجه من سبيل